نشرة الإنسان والتطور
بقلم : يحيى الرخاوى
1980-2001
نشرة يومية من مقالات وآراء ومواقف
تعتبر امتداداً محدوداً لمجلة الإنسان والتطور
2009-7-7
السنة الثانية
العدد: 676

دراسة فى علم السيكوباثولجى (الكتاب الثانى)

لوحات تشكيلية من العلاج النفسى
شرح على المتن : ديوان أغوار النفس

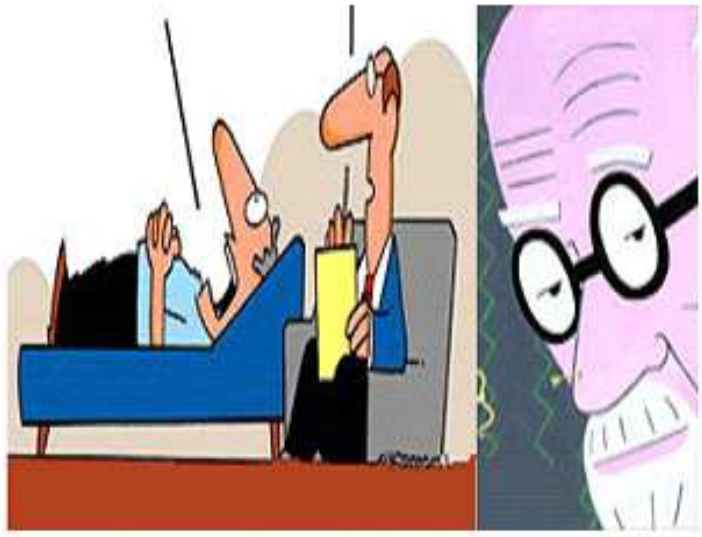

الحلقة (10)

الجزء الثانى

من مقدمة
الفصل الأول

التحليل النفسى: هل مات فعلاً؟

أثناء بحثى عن صورة لعنوان هذا المقال، عثرت على حوار هام مع الاستاذ الدكتور **جوناثان إنجل** Jonathan Engel, Ph.D، وهو حاصل على دكتوراه فى تاريخ العلوم والطب من جامعة يل Yale، وكان قد كتب كتابا مؤخرا 2008 عن العلاج النفسى الأمريكى بعنوان American Psychotherapy: The Rise of Psychotherapy in the United States.

أجرى الحوار **جابرييل بيركنر** Gabrielle Birkner، ونشر فى 18 فبراير سنة 2009، وقد رأيت أنْ أقتطف من هذا الحوار ما يبين كيف أن نقد التحليل النفسى قائم ومستمر وبعضه موضوعى حتى عهد قريب جدا.

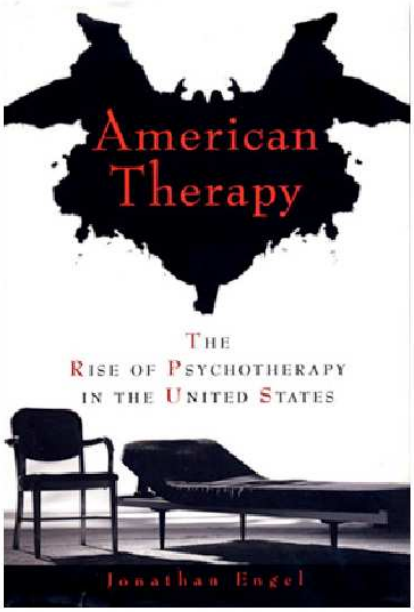

قبل أن أقتطف بعض فقرات الحوار، أريد أن أعترف أننى حين قرأت تعبير "العلاج الامريكى"، ونهوض العلاج النفسى فى الولايات المتحدة الأمريكيه، كنت أتصور أنه سوف يتكلم أكثر عن الثقافة الأمريكية المعاصرة، وعن تميزها بما أتاح ظهور علاج نفسى باسمها، لكننى لم أجد أيا من ذلك فى كل فهرس المحتويات، ولا فيما استطعت الحصول عليه من موجزات ومقتطفات (لم أحصل على الكتاب الأصلى كله بعد) - نبهنى ذلك أن ما تقوم به هذه النشرة من محاولات "تحديد علاج نفسى مصرى"، ثم "علاج نفسى

عربى"، هو أمر مشروع، بل أمر مطلوب منا ولنا، ربما أكثر بكثير مما هو كذلك عند الأمريكيين.

سأل المحاور "برنكنر" الدكتور "جوناثان إنجل" عن كيف حصل على الدكتوراه فى فيينا، وحين كتب كتابا عن العلاج النفسى كتبه فى أمريكا عن أمريكا، وأعتقد أن مثل هذا السؤال وجوابه قد يهدى بعضنا إلى ما ينبغى فعله، فهو ينطبق أكثر فأكثر على كثير منا.

المهم، سوف أقتطف من هذا الحوار ما قد يكفى شرحا لمتن هذه الحلقة.

ملحوظة: للأمانة ، فقد نشر هذا الحوار تحت عنوان **"الجذور اليهودية للتحليل النفسى"**، وأنا لست متحمسا كثيرا لهذا العنوان، ولم أتوقف طويلا عند الذى دار حول هذه المسألة فى الحوار، لأننى منذ أصدر الدكتور **صبرى جرجس كتابه "التراث اليهودى الصيهونى والفكر والفرويدى** اضواء على **الأصول الصهيونية لفكر سيجموند فرويد"1969** وأنا حذر من هذا التوجه حتى لو صح بعضه.

وفيما يلى مقتطفات من الحوار، أرى أنها قد تكفى شرحا للمتن اللاحق:

المقتطفات

جابرييل بيركنر: لقد ركزت فى كتابك السابق على السياسة الصحية عامة مثل الإيدز وغيره ، فما الذى دعاك لتناول موضوع العلاج النفسى مؤخرا؟

جوناثان إنجل: لقد كانت أطروحتى أثناء دراستى الطب فى فيينا منذ حوالى25عاما عن حركة التحليل النفسى، وعلاقتها بالمجتمع اليهودى، فى فيينا، (....)

جابرييل بيركنر: كيف أن أطروحة عن التحليل النفسى فى فينا تتطور إلى كتاب عن العلاج النفسى فى أمريكا؟

جوناثان إنجل: لقد لاحظت أننا نفتقر إلى كتاب يشرح لنا كيف أنه لا أحد الآن – تقريبا – من الأمريكيين يذهب للتحليل النفسى كما كان فى الماضى، بل دعنى أقول إن أحدا من الذين يذهبون لاستشارة الطبيب النفسى لا يفعل ذلك وهو يهدف إلى أن يعالج علاجا نفسيا على وجه التحديد، لا شك أن مفهوم العلاج النفسى مازال شائعا عند العامة، لكنه لم يعد من مهام الطبيب النفسى بالذات، أما ما يمارَس تحت اسم العلاج النفسى فهو ليس نابعا من، ولا محرَّكا بـ ، ما هو "تحليل نفسى" بالذات.

جابرييل بيركنر: هل ثم مكان للتحليل النفسى حاليا فى مجال الطب النفسى؟

جوناثان إنجل: دعنى أقول لك شيئا هاما، إنك تسمع مثلا من يقول: "أنا أمارس *من منطلق* التحليل النفسى ....." "لكننى افعل ذلك جنبا إلى جنب مع بعض مضادات الاكتئاب"، وهكذا، هذا كل ما هنالك.....

جابرييل بيركنر: أرى أن أغلب الأطباء النفسيين هذه الأيام قد نحوا جانبا فكرة التحليل النفسى ، فهل فعلوا نفس الشىء مع ما يسمى العلاج النفسى؟

جوناثان إنجل: معظم الأطباء النفسيين يميلون إلى ممارسة نوعا من العلاج النفسى، وكثير منهم تدرب على ذلك لفترة ما، لكنهم يكسبون أكثر حين يتعاملون بالعقاقير بلا شك.

جابرييل بيركنر: ما هى المواصفات التى تجعل من المعالج معالجا كفءا

جوناثان إنجل: الذكاء والمواجدة (Empathy) فى إطار من الالتزام المهنى المنضبط، أنت تستطيع أن تجد كل ذلك وأنت تشرب قدحا من الجعة مع صديق، لكن أن تتواجد هذه الصفات الثلاثة هكذا بالتزام مسئول، فهذا أمر آخر

جابرييل بيركنر: لو أن التحليل النفسى كان بكل هذه **اللافاعلية**، فما الذى جعله يستمر كل هذه المدة؟ لماذا لم يختف تماما؟

جوناثان إنجل: كانت "التذكرة الفرويدية" هى أول التذاكر الواعدة بعرض جيد، بديلا عن ما كان ساريا فى الثلاثينيات مثلا، لو أنك سألت أحد الممارسين عن ما كان يمكن تقديمه للمرضى النفسيين آنذاك ، لأجابك أنه كان قليلا جدا، فظهر التحليل النفسى فى هذه الآونة، فبدا وكأنه الدواء لكل الأمراض، صحيح أنه سار ببطء شديد، لكن بدا شيئا أفضل من لاشى.

جابرييل بيركنر: لكن بعد ذلك ظهرت علاجات كثيرة، أسرع وأفضل نتائجا، فلماذا استمر التحليل النفسى بعدها، ومعها، بكل هذا التأثير؟

جوناثان إنجل: (.... ليس هكذا تماما...) ...ثم إنه مع تزايد التنظيم، وبالنظر إلى الاعتبارات الاقتصادية، والنتائج المتواضعة التى أنجزها هذا النوع من العلاج، فإن هذ التأثير سوف ينحسر أكثر فأكثر باضطراد

جابرييل بيركنر: هل تعتقد أن ثم أمل فى أن يستعيد التحليل النفسى منزلته فى وقت ما؟

جوناثان إنجل: لا .. لقد مات.

(انتهى الحوار بهذه الجملة)

وبعد:

مع أننى لا أوثّق ما يجيء بهذه النشرات فى معظم الأحيان، ومع أن هذا المقتطف لم يضف لى جديدا سواء ما جاء فى المتن، أو فى الشرح القديم، أو حتى فيما أنوى تطويره، إلا أننى اقتطفت منه، لأبين من خلاله ما يلى:

1. إن النقد والمراجعة ليس قاصرا على أمثالنا ممن لم يمارسوا -غالبا- التحليل النفسى بالكثافة التى مورس بها فى بلد مثل أمريكا لعشرات السنين
2. كما ذكرت فى المقدمة، إذا كان هذا العالم الاستاذ فى تاريخ الطب عامة، يرى أن ثم علاجا يمكن أن يسمى العلاج الأمريكى، فأولى بنا أن نفكر فى ثقافتنا الشديدة الاختلاف عن ما يجرى هناك، وعن ما جرى تاريخا، أن نفكر فى تميزنا سلبا وإيجابا عن غيرنا وبالذات فيما يخص العلاج النفسى.
3. إن استمرار شيوع مفاهيم التحليل النفسى عند العامة على مستوى العالم ، بما فى ذلك بلادنا، له أسباب ثقافية (إيجابية وسلبية) ، لا تتعلق غالبا بفكرة الطب ولا بفكرة العلاج بوجه خاص.

هذا، علما بأننى قد تجاوزتُ قصدا (برغم ما أشار إليه العنوان) ربط نقد هذا النوع من العلاج بغلبة اليهود فيمن يمارسون هذا العلاج تاريخا وحالا، بل إن سؤالا ورد فى الحوار عن تفسير غلبة اليهود أيضا بين المرضى الذين يسعون إلى التداوى بهذا العلاج التحليلى، فلا أنا مقتنع بفكرة الربط، ولا عندى ما يثبت ذلك، ولا عندنا ما يقابل ذلك، (لهذا لم أقتطف هذه الفقرات أصلا)

4. إن المتن الشعرى هنا الذى كتب سنة 1974 بالعامية المصرية، فى سطور قد تناول هذه القضية بإحاطة كافية، وكان له نفس التوجه تقريبا، ولعل رد د.إنجل أن التحليل النفسى **"مات"** ولا سبيل إلى إحيائه يرتبط بشكل ما بما ننقده من أنه ظاهرة التحليل النفسى الكلامى تحمل مخاطر اللاحراك، سواء بفرط الاجتهاد والتفسير اللفظى، أم بسوء استعماله لعقلنة حركية الوجود وتوقيفها فى المحل، وهو ما نعنيه بالموت.

وبعد

فأنا لا أعرف بعد هذا المقتطف هل يحتاج المتن إلى مزيد من الشرح؟

المتن

واحدْ نايم مِتْصَلْطَحْ، وعْنيه تتفرجْ:
على رسم السقفِ وْعَلَى أفكارُو اللى بتلفْ،
تْلِفْ،. تْلِفْ،
وكلامْ فى كلامْ .. هاتَكْ يا كَلامْ. يا حرامْ!!
والتانى قاعِدْلِى وَرَاه، على كرسى مدَهَّبْ.
قلبه الأبيض طيّب. وسَماعُهْ لَمْ يِتْعيِّبْ،
عمال بيفسَّرْ أحْلامْ
وصاحبنا يرص ف أوهام،
وعُقدْ، ومركَّب، و"المكتوب"
و:قدَرْ"،وحكاوى، وْصَفّ ذْنوب.
وأخينا شَفَايفُهْ قِفْل رْصاص،
ووْدانُهْ يا خويا شريطْ حسَّاسْ.
يسَمعْ حكاياتْ .. حكاياتْ،
وتمرّ ساعاتْ وساعاتْ،
(ما أظنّشْ أيوبْ ماتْ).
"إشى عدّى البحر ولا اتْبَلّش"؟؟
"قالّك: إلعجل فْ بطن امه"!!
أرْزَاقْ ..!
وخلايق لابْسَه الوشّ زْوَاقْ.

ملاحظات لاحقة محدودة:

(1) كثيرا ما يأتى المرضى عندنا يطلبون تحليلا نفسيا بالذات، وليس علاجا نفسيا، أو حتى علاجا فقط، وفى هذه الحالة قد أقول لهم مباشرة ، " أنا بعالج بس، لا باحلل، ولا باريّح..."!

(2) إنه لا يوجد عندنا حاليا - إلا نادرا جدا - من يمارس التحليل النفسى بالمعنى الوارد لا فى الحوار مع مؤلف الكتاب الأمريكى ولا فى المتن الشعرى.

(3) إن الصبر وحسن الاستماع الذى يتحلى بهما المحلل النفسى هما العوامل الفاعلة المسئولة عن التحسن أو الشفاء وليس محتوى ما يقال وليس أيضا صحة التفسير، ولا تأويله **"قلبه الأبيض طيب، وسماعُه لم يتْعَيِّب ....."**.

(4) إن تعبير "فك العقد" هو تعبير شائع عندنا برغم أنه لا يستعمل عند الأجانب بهذا الاختزال، والاقتطاف الساخر للفزورة: **"إشى عدّى البحر ولا اتبلّش"** وجوابها: **"قال لك العجل فى بطن أمه"** يشير إلى احتمالات التسطيح أثناء التقعر فى التفسير الأصعب، مع أن الأسهل حاضر، لأن أى شخص يركب مركبا صغير، (أو حتى يسير على كوبرى) ينطبق عليه أنه "عدّى البحر ولا اتبلّش" فلماذا تقتصر الإجابة على هذا المثال الصعب. هذا هو ما يقابل تعسف التفسير بالتحليل النفسى أحيانا مع أن التفسير الأصح يكون أقرب وأظهر.

(5) إن وظيفة "الفضفضة" و "التنفيث"، و"طلع اللى فى قلبك" تغلب على فكر أغلب من يسعى إلى العلاج النفسى أو التحليل النفسى، وهى ليست مرادفة لأيهما مع أنها قد تكون جزءًا يسيرا من العملية العلاجية ، خاصة فى البداية.
(6) إن الاعلام السطحى الحلقة (أنظر رقم [6] ""نفسنة الحياة المعاصرة" 24-6-2009") والدراما التافهة يساهمان فى تشكيل وعى العامة عن موضوع العلاج النفسى والتحليل النفسى، وهما مسئولان عن تثبيته عند مرحلة تاريخية انتهت (مع اسهام بعض النفسيين بشكل أو بآخر).
(7) إن الغالب عند العامة وهم يحاولون الاستعانة بالعلاج النفسى أو التحليل النفسى هو البحث فى الأسباب (الحتمية السببية) وقد يصلح ذلك مدخلا إلى العلاج لكنه عادة يستخدم فى التبرير أو التفسير وليس كخطوة نحو العلاج النمائى وبسط الوقفة **Unblocking & Unfolding**
(8) لم أعرف من كنت أعنى بتعبير "وخلايق لابسه الوش زواق"، ربما كنت اشير إلى الاعلام والدراما أكثر مما كنت أقصد الزملاء المحللين الذين مدحتهم أعلاه.

- About Jonathan Engel, Ph.D.
Jonathan Engel holds a Ph.D. in the history of science and medicine from Yale, and has written extensively about the historical development of U.S. medicine and health policy. Most recently, he has authored the 2008 book, American Psychotherapy: The Rise of Psychotherapy in the United States. His previous books are Doctors and Reformers: Discussion and Debate of Health Policy 1925-1950, Poor People's Medicine: American Charity Care Since 1965, and The Epidemic: A Global History of AIDS. He is a professor of health care policy and management at Baruch College in New York City.

- صبرى جرجس (التراث اليهودى الصيهونى والفكر والفرويدى اضواء على الاصول الصهيونيه لفكر سيجموند فرويد) الناشر مكتبة عالم الكتب 1969- القاهرة.
- هذه الترجمة نحتها الابن د. إيهاب الخراط، ترجمة لكلمة empathy التى تعنى المشاركة الوجدانية وتتطلب درجة من التقمص والمواكبة معا، وبذلك هى تتميز عن كلمة sympathy التى تعنى الشفة أو الاشفاق.
- ملحوظة : للأمانة ، كان العنوان الفرعى للمقال هو : "مؤلف كتاب العلاج الأمريكى ، يتحدث عن "فرويد"، و **"أوبما"**، وقد شدنى العنوان نظرا لأننى كتبت وأكتب هذه الأيام عن **أوباما** بالذات، لكن لم أجد فى كل الحوار ما يبرر وضع اسم أوباما فى العنوان هكذا اللهم إلا قول إنجل: بأنه (أوباما) يملك تلقائيا: بتكوينه الفطرى، أو بما تعلمه، القدرة على التحكم فى عواطفه، وأنه بهذا يمثل نموذجا للصحة النفسية، ذكر المؤلف ذلك بعد أن بيّن أن ثمة علاجات أخرى غير التحليل النفسى، تحقق هذا التحكم أسرع وأكفأ، وقد تعجبت من هذا الحشر هكذا، ولم أفهمه، ولم أستشهد به أو اقتطفه، وما زلت محتارا)
وقد اعترض **أحد المعلقين** على هذا الجزء من الحوار قائلا: إن المؤلف لا يعرف كيف وصل أوباما إلى ما يصفه هكذا بأنه "صحة وجدانية" emotional health ، سواء من فطرته أو مما اكتسبه، ثم ما علاقة هذا أو ذاك بالمقال؟
انتهى تعقيب القارئ الذى رمز لاسمه بـ DT بتاريخ السبت 21 فبراير 2009، فاكتفيت بتعقيبه هذا عن تعقيبى، علما بأننى لا أعرف شيئا اسمه الصحة الوجدانية، ولا أظن أن السيد أوباما يتمتع بها بوجه خاص، ما الحكاية؟ أين نحن؟ فى مصر؟!!
وفيما يلى النص الانجليزى.
Barack Obama, for example, clearly has enormous mastery over his emotions. He's able to say, "I'm not going to get upset about this." Partially he was born with that, but I suspect that he's also learned to do that.
Comment : DT *Sat. Feb 21, 2009*
The author does not know how President Obama has come to a place of emotional health. He was born with that (mastery of his emotions)...or "I suspect"--neither belongs in this article.
وبما أن هذا ليس موضوعنا فدعونا نترك ذلك جانبا لأن "سيادة الرئيس أوباما" لم يذكر إلا فى هذه السطور.